

التمثيل العربي

فن التمثيل من الفنون القديمة في أوروبا من عهد اليونان، وقد نقل العرب في صدر الدولة العباسية علوم اليونان الطبيعية والفلسفية والرياضية، وأغضوا عن أكثر آدابهم الأخلاقية، أو الشعرية والتاريخية، ومن جملتها التمثيل، ولعل السبب في ذلك تجافي المسلمين عن ظهور المرأة المسلمة على المسرح، فأزهر التمدن الإسلامي وأثمر وليس فيه ثمة تمثيل — إلا ما كان قبيل الشعائر الدينية، كتمثيل قتل الحسين عند الشيعة^١، أو بعض ما يأتيه أصحاب الطرق الصوفية من الإشارات أو الحركات التمثيلية — ذكروا رجلاً صوفياً كان معاصراً للمهدي أنه كان يخرج كل إثنين وخميس إلى مكان خارج بغداد، ويجتمع حوله الناس، فيصعد إلى مرتفع وينادي قائلاً: «ما فعل النبيون؟ أليسوا في أعلى عليين؟» فيقولون: «نعم» ثم يأتي برجل يجلسه بين يديه يمثل به أبا بكر، ويأخذ في إطرء أعماله، ويأمر به إلى أعلى عليين، ثم يأتونه بعثمان فيصف أعماله، ثم بعلي بن أبي طالب فيثني عليه، ويأمر به إلى أعلى عليين، ثم يوتي بمعاوية فيندد بأعماله، ويوقفه في الظلمة، ويفعل هكذا في يزيد، وقد عدَّ ذلك بعضهم من قبيل التمثيل، وهو بالحقيقة من قبيل الشعائر الدينية، نحو تمثيل قتل الحسين.

على إننا وقفنا بين آثار أدباء العصر المغولي على ما يشبه التمثيل، نعني كتاب طيف الخيال لابن دانيال الموصلية، لكنه رواية هزلية فيها كثير من المجون والخلاعة والألفاظ البذيئة^٢، من قبيل التمثيل ما يسميه السوريون كراكوز، والمصريون خيال الظل، وعدَّ بعضهم المقامات من قبيل التمثيل (الدرام)، وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أنها تخالفه.

(١) التمثيل الحديث

أما التمثيل كما هو عند الإفرنج لهذا العهد، فقد جاءنا في جملة أسباب المدنية الحديثة، حملة بونايرت معه عند قدومه إلى مصر في جملة ما حملة من بذور هذه المدنية كالطباعة والصحافة، كان بين رجال حملته العلمية رجالان من أصحاب الفنون الجميلة وكبار الموسيقيين، وقد مثلوا بعض روايات الفرنسية بمصر لتسليية الضباط، واشتغل الجنرال منو بتشبيد مسرح للتمثيل سماه «مسرح الجمهورية والفنون»، لكن ذلك كله ذهب بذهابهم، وليس هو في كل حال تمثيلاً عربياً، ولو رسخت أقدام الفرنسيين بمصر من ذلك اليوم لصار عربياً، وكانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى هذا الفن، لكنها تخلت عن ذلك الفضل إلى أختها سوريا.

(٢) التمثيل العربي في سوريا

لم يدخل التمثيل الحديث إلى اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي، والسوريون أسبق المشاركة إلى اقتباسه؛ لما توفر لديهم من أسباب الاختلاط بالإفرنج، وإتقان لغاتهم، والرحلة إلى بلادهم، ومشاهدة مراسهم، ومطالعة مؤلفاتهم، وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش من أهل بيروت المتوفى سنة ١٨٥٥، قبل بداية النهضة البيروتية التعليمية، وقد مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٨، أي قبل إنشاء المدارس الكبرى فيها ببضعة عشر عاماً، وقبل صدور أقدم صحف الأخبار بعشرة أعوام، فلم يكن في بيروت يومئذ كلية الأميركيان، ولا كلية اليسوعيين، ولا المدرسة الوطنية، وقبل أن ينبغ البستاني واليازجي والشدياق وغيرهم، ومع تقدم التمثيل في الظهور على الكليات والصحف فقد سبقته في الرقي، مع أنه جاءنا ناضجاً؛ لأن الروايات التي وضعها النقاش لا تزال إلى الآن من أحسن ما وُضع من نوعها في اللغة العربية.

مارون النقاش وُلد سنة ١٨١٧، وتوفي سنة ١٨٥٥

ولد هارون النقاش المذكور في صيدا سنة ١٨١٧، ونشأ في بيروت، وفيه ميل إلى العلم، وأتقن اللغات التركية والفرنساوية والإيطالية، وله ولع بالموسيقى، لكنه انقطع للتجارة ومال إلى الأسفار، فجاء مصر سنة ١٨٤٦، ورحل منها إلى إيطاليا، وهي يومئذ أكثر ممالك أوربا علاقة بالشرق، وشهد مراسها، فأعجبه التمثيل وأحب نقله إلى العربية،

فلما رجع إلى بيروت أخذ في العمل، وجمع نخبة من أصدقائه علّمهم التمثيل، وألّف لهم رواية «البخيل»، وهي أول رواية تمثيلية أُلّفت في اللغة العربية، مُتت سنة ١٨٤٨ في منزله، وحضر تمثيلها قناصل الدول وأعيان بيروت، وشاع خبرها وتناقلته الصحف الإفرنجية في أوروبا؛ لأن الصحافة لم يكن لها وجود في سوريا؛ فازداد النقاش نشاطاً، فألّف رواية «أبي الحسن المغفل، أو هارون الرشيد» مثلها في منزله أيضاً سنة ١٨٥٠، ودعا إليها والي سوريا وبعض الوزراء ورجال الدولة الذين كانوا في بيروت يومئذٍ، فأعجبوا به وأثنوا عليه؛ فازداد همة، وأنشأ مسرحاً بجانب منزله خارج باب السراي (تحول بعد موته إلى كنيسة عملاً بوصيته) شخّص فيه رواية الحسود وغيرها. وقد حذا برواياته هذه حذو مولير الفرنساوي، وهو مع ذلك يتعاطى التجارة، وإنما اشتغل بالتمثيل حباً بالفن، وكذلك رفاقه، وكانوا في بادئ الرأي يتلقون الناس ليحضروا تمثيلهم لتجافي المرء عن كل جديد، فلما ذاقوا لذة التمثيل تقاطروا إلى مشاهدته، وكان الممثلون من نخبة الأندكيا، نبغ منهم بعد ذلك جماعة من كبار الوجهاء والأدباء، ولو مدّ الله في أجله لكان لهذا الفن شأن آخر، لكنه توفي في طرسوس سنة ١٨٥٥، وكان قد ذهب إليها لبعض المهام التجارية، فتولى نشر مؤلفاته بعده أخوه نقولا النقاش في كتاب سماه «أرزة لبنان» طُبِع في بيروت سنة ١٨٦٩ مصدراً بترجمة المؤلف، ونبغ من آل النقاش غير واحد من الأدباء ورجال الصحافة سيأتي ذكرهم.

ونشأ في السوريين حب التمثيل بسبب ذلك، ورغب أدباؤهم في هذه الصناعة، فجعلوا يمثلون في المراسح الخصوصية أو المدارس الكبرى أو المراسح العمومية، وأشهرها مسرح سوريا، ولا يزال باقياً إلى اليوم. ومن قدماء المشتغلين بالتمثيل في سوريا بعد النقاش سعدُ الله البستاني، مثل رواية انتظم في سلكها جماعة من نوابغ الشبان يومئذٍ، ومنهم الآن غير واحد من العلماء وأهل الوجاهة.

ونبغ نخبة من الممثلين في بيروت، أكثرهم اشتغل في هذا الفن رغبة فيه لا في الكسب، ومن جملة النابغين سليم النقاش ابن أخي مارون مؤسس هذا الفن، ومعه جماعة أشهرهم أديب إسحق، فترجما روايات تمثيلية، وألّفا جوقاً شخص مراراً في بيروت.

(٣) التمثيل العربي في مصر

وفي أثناء ذلك تولى عرش الأريكة الخديوية إسماعيل باشا (سنة ١٨٦٣)، ونشط أهل الأدب بما سهّله لهم من أسباب الرزق في خدمة الحكومة وغيرها، فرغب شبان سوريا في الرحلة إلى هذا القطر السعيد، واتفق الفراغ من حفر قناة السويس في عهده (١٨٦٩)، فاحتفل بافتتاحها احتفاله المشهور، وبنى الأوبرا الخديوية لذلك الغرض، واستقدم لها ممثلين من الإفرنج مثلوا فيها رواية عائدة باللغة الفرنسية.

فتحدث الناس يومئذ بعظمة إسماعيل وفخامة مسرحه، ورغبته في الأدب وأهله، فجاء مصر جماعة من أدباء السوريين وكتّابهم وشعرائهم، ومن جملتهم المرحومان سليم النقاش وأديب إسحق، ومعهما جوق من جملة الممثلين فيه يوسف خياط، فنزلا في الإسكندرية سنة ١٨٧٦، فمثلوا عدة روايات في مسرح زيزينيا، فلم يلقيا إقبالا فتخلّيا عن الجوق ليوسف المذكور، وانصرفا إلى الصحافة. وفي سنة ١٨٧٨ انتقل الخياط بجوقه إلى القاهرة مقر الخديوي ورجال الدولة، فنشطه إسماعيل، وأمر أن تُفتح له أبواب الأوبرا ليمثّل رواياته، ووعد أن يحضر التمثيل هو بنفسه، فمثل الخياط فيها رواية «الظلم»، وكان إسماعيل حاضرًا، فغضب لما تخلّل التمثيل من ذكر الظلم والظالمين، وتوهم أنهم يعرضون به وبأحكامه، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر، فعادوا إلى سوريا، وظلت الأوبرا الخديوية مغلقة في وجه التمثيل العربي إلى سنة ١٨٨٢، وكان قد أُقيل إسماعيل وحلّفه ابنه الخديوي السابق، وجاء في تلك السنة سليمان القرداحي بجوقه وفيه الشيخ سلامة حجازي، فأذنت له الحكومة بالتمثيل في الأوبرا، وجرت الحوادث العربية في ذلك العام، فهاجر وكفّ عن التمثيل، ولم يرجع إلا سنة ١٨٨٤ ومعه الشيخ سلامة وليلى، فكانت الأوبرا تغص بالمتفرجين لكثرة الزحام؛ رغبة في سماع الغناء، ثم أقفلت الحكومة الأوبرا في وجه الأجواق العربية.

ورغب المصريون في أثناء ذلك في التمثيل، لكنهم قلّمًا استخدموه للارتزاق، وإنما كانوا يمثلون في المدارس أو المسرح بأجواق تتألف من التلاميذ، وأول من فعل ذلك عبد الله نديم، فقد مثل بالإسكندرية روايتي «الوطن» و«العرب» في مسرح زيزينيا بحضور الخديوي السابق، وكان لهما وقع حسن في نفسه، فتبرع بمائة جنيه لمساعدة الجمعية القائمة بأعباء تلك المدرسة.

التمثيل للجمهور

وقدم القاهرة منذ نحو عشرين سنة أبو خليل القباني من دمشق، ومعه إسكندر فرح، فاشتغل جوق القباني بضع سنوات، وكان يمثل في مسرح إفرنجي يسمى بوليتياما، ثم استقل فرح بجوقه، لكنه اضطر لإنشاء المسرح الخاص به في شارع عبد العزيز، ولم يكن في الإمكان إتقانه كما ينبغي دفعة واحدة؛ لما يقتضيه ذلك من النفقة الطائلة. والارتزاق من التمثيل يومئذٍ يختلف عما كان عليه في عهد الخياط والقرداحي؛ لأن هذه الأجواق كانت قائمة بالخدويي وبعض الأمراء والوجهاء، ولا يههما إرضاء سواهم؛ لأن كسبها منهم، ولم يكن للعامّة سبيل لحضور التمثيل في الأوبرا إلا قليلاً، أما أجواق القباني وفرح وغيرهما، فكان اعتمادها في الارتزاق على الجمهور، ولا بد لها من إرضائهم، فانتقلت صناعة التمثيل من الخاصة إلى خدمة العامة، والوجه الأخير أقرب إلى مقتضيات الارتقاء الطبيعي، فاضطر أصحاب هذه الأجواق إلى تمثيل الروايات التي تلتفت انتباه العامة وتسترعي أسماعهم، فوجدوا الجمهور يميلون على الخصوص إلى الصوت المطرب والنكت المضحكة، فوجهوا عنايتهم إلى انتقاء أطرب المنشدين، وتمثيل الروايات المضحكة، أو تذييل الرواية بفصل مضحك، ثم أخذت هذه الأجواق ترتقي تدريجياً بارتقاء أدواق المشاهدين، ولم يبق رائجاً منها في القاهرة إلا جوق إسكندر فرح، وساعده الأقوى على إرضاء الجمهور الشيخ سلامة حجازي المطرب الشهير، فارتقى الجوق والمسرح والحضور معاً.

وما زال الشيخ سلامة عاملاً في جوق إسكندر فرح إلى سنة ١٩٠٤، فانفصل عنه ولحقه الجوق كله، فأنشأ فرح جوقاً جديداً عدل فيه عن الطريقة القديمة في التمثيل العربي من حيث كثرة الغناء في أثناء التمثيل، وكان قد تقرّر في أذهان الناس إلى ذلك الحين — ولا يزال ذلك شائعاً إلى الآن — أن التمثيل لا يعد تمثيلاً إلا إذا تخلله أدوار غناء، وأصل هذا الاعتقاد أن النقاش مؤسس التمثيل لما أراد نقل هذا الفن إلى العربية، فضل أن تكون رواياته غنائية، أي من النوع المعروف عند الإفرنج بالأوبرا؛ ترغيباً للناس في حضور التمثيل، ولو لأجل سماع الغناء، فألف رواياته على هذا النسق، ووضع الألحان لشعرها، وكان هو بنفسه يلحنها، فكان أول ما عرفه أبناء اللغة العربية من الروايات التمثيلية ممزوجاً بالغناء، فساروا على نسقه في الروايات التي ليست من قبيل الأوبرا، فأراد أن يعدل بالتمثيل إلى أصل وضعه، فجعل روايات جوقه الجديد بلا غناء، فكان لها وقع حسن عند الأدباء، أما الجمهور فلم يجدوا فيها ما كانوا يجدونه في الروايات الأخرى، فنال جوق الشيخ سلامة الأسبقية، وراج رواجاً عظيماً، وانحل جوق فرح.

تأليف الروايات التمثيلية

ولا بد لنا من كلمة بشأن تأليف الروايات التمثيلية عندنا، فنقول على العموم: إن أكثر الروايات المذكورة منقول عن الإفرنجية، وكان مؤلف الرواية في أول هذه النهضة هو ممثلها أو مدير تمثيلها، كما رأيت في ما فعله النقاش وغيره، ثم صار المؤلف غير الممثلين، وأشهر من عني في تعريب الروايات التمثيلية الشيخ نجيب الحداد، وأشهر ما يمثّل على المراسح المصرية من تأليفه أو تعريبه، حتى جرى كثير من أشعارها وأناشيدها على الأسنة مجرى الأمثال، واشتغل كثيرون غيره في تعريب الروايات، وعدد المعربين يزداد يوماً فيوماً، وتعريبهم يتفاوت دقة وإتقاناً بتفاوت أدواقهم ومواهبهم في الشعر والإنشاء، على أنهم صرفوا عنايتهم على العموم إلى الإنشاء المرسل السهل، وأهملوا ما كان الأولون يتوخونه من التسجيع، لكنهم قلّما التفتوا إلى تأليف الروايات من عند أنفسهم يمثلون بها حوادث عربية شرقية مما لا يستطيع أدباء الإفرنج إدراك تفاصيله، أو لا يحسنون تمثيله لبعده عن مألوفهم. ومن أتقن الروايات التمثيلية المؤلفة في اللغة العربية رواية المروءة والوفاء للشيخ خليل اليازجي، وهي الرواية الشعرية الوحيدة في اللغة العربية، وقد شهدنا تمثيلها في بيروت سنة ١٨٧٨، وتأليفها خطوة مهمة في التمثيل العربي؛ لأنها نحو ما يفعله كبار الكُتّاب في أوروبا من تأليف الروايات الشعرية التمثيلية.

ودخل التمثيل العربي منذ بضع سنوات في دور علمي جديد بالفتات الجناب الخديوي إليه، وإرسال جورج أبيض لإتقانه على أربابه في باريس، وقد عاد منذ بضع سنوات وألّف جوقاً عربياً، وأخذ الأدباء في تأليف الروايات العربية، أو ترجمتها عن الإفرنجية، ومثلوا روايات بلغة العامة كان قد ألّفها عثمان بك جلال، ولا تزال هذه النهضة التمثيلية في أولها، ولا يُرجى النجاح فيها إن لم تمد الحكومة يدها لمساعدتها بالمال، والمنتظر أن تفعل ذلك.

هوامش

(١) تفصيل ذلك في الهلال ٤٦٥ سنة ١٨، والجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) الجزء الثالث من هذا الكتاب.